صورة الآخر التركي المسلم في روايتَي «كاداريه»:

الجسر وطبول المطر

أ. د. عبد المجيد زراقط*

التطهير العرقي والوعي القومي الجديد:

كان المتتبّع لأحداث حرب البوسنة (١٩٩٢-١٩٩٥) يُصدم بما يحدث: مجازر جماعيَّة، تهجير، تدمير، جرف المنازل والمساجد والحمَّامات... وكل ما يذكّر بأهل تلك البلاد وتاريخهم وحضارتهم... وإذ تنتهي هذه الحرب بإنجاز التطهير العرقي: قتل حوالي مائتي ألف مسلم، تهجير حوالي مليون بوسني مسلم، قيام جمهورية الصرب داخل البوسنة...، يعرف الهدف من قيام هذه الحرب، إذ يراه وقد تحقق أمامه، ويسأل:

– أليس غريباً أن يحدث هذا في بلد (يوغسلافيا) كان يبدو موحَّداً ومتآخياً؛ ثم يبحث عن تفسير، ويعود إلى ما كُتِب عن جذور هذه الحرب، ومثيلاتها في بلاد البلقان فيقرأ كتاب «الطرد والإبادة – مصير المسلمين العثمانيين (١٨٢١-١٩٢٢)[١]» للمؤرخ الأميركي جستن مكارثي، وقد صودف أن صدر في الولايات المتحدة الأميركية إبان نشوب هذه الحرب.

يرى مكارثي أن كل البلقان الحديث الذي نعرفه تأسَّس على التطهير العرقي منذ بداية القرن التاسع عشر ...، وأن هذا التطهير لم يكن يقتصر على البلقان فحسب، وإنما شمل القوقاز المجاور،

* أستاذ الأدب العربي- في الجامعة اللبنانية من لبنان.

وقد طُهِّرت، خلال قرن من الزمان (١٨٢١-١٩٢٢) مناطق واسعة من المسلمين، فقتل حوالي خمسة ملايين ونصف المليون مسلم، وهُجِّر العدد نفسه إلى جمهورية تركيا.

ويعيد مكارثي ما حصل إلى عوامل منها:

١-النظام العثماني الضعيف، القائم على الملل والهويَّة المفتوحة.

٢-الوعي القومي العثماني الجديد للشعوب المسيحية.

وإن يكن الأتراك، في النظام القائم على الملل، لم يعمدوا إلى تحويل ديني قسري يفضي إلى هوية موَحّدة، ومن ثم إلى توحيد الجماعات الدينية المختلفة، فإن الوعي القومي الجديد للشعوب المسيحية كان مشبعاً بعداء ديني للآخر المسلم، ممثلاً بالتركي، يهدف إلى التخلص من هذا الآخر، وإنجاز توحيد ديني قسري لم يعمل الأتراك، إبان سيطرتهم على إنجازه.

وإن يكن المقام ليس مقام إطالة في الكلام على هذا الموضوع فإننا سنقدم مثالاً دالاً، وهو الشعار الذي رفع في شبه جزيرة المورة، في نيسان عام ١٨٢١، وهو: «السلام للمسيحيين والموت للأتراك».

تبيُّن الوعي/ صورة الآخر الرّوايتين

في محاولة لتقديم معرفةٍ بهذا الوعي الذي يمثل وجهاً من وجوه رؤية العالم الغربي للآخر المسلم، وبغية تبيّن صورة هذا الآخر في النص الروائي نقرأ روايتين للروائي الألباني إسماعيل كاداريه، هما: الجسر[٢] وطبول المطر[٣]، واختيار كاداريه مقصود لأسباب كثيرة منها:

١-إنه روائي كبير معروف على مستوى عالمي.

٢-هو روائي ألباني، وألبانيا هي البلد المسلم الوحيد في أوروبا، وفي الروايتين رؤية إلى هوية هذا البلد تستحق المعرفة.

٣-يمثل التجربتين الغربيتين: الشيوعية والليبرالية. فقد كان من كبار مثقفي ألبانيا الشيوعية وصديقاً لرئيسها، وعندما هبت رياح التغيير العالمية غادر إلى فرنسا، وأعلن من باريس انشقاقه، وهو الآن يقيم في هذه المدينة يواصل كتاباته من موقعه الجديد.

٤-يعود، في هاتين الروايتين، إلى المرحلة التي قاوم فيها الألبانيون محاولات الأتراك المسلمين الدخول إلى بلادهم.

رواية الجسر، هوية وتاريخ:

في رواية «الجسر»، يقرر الراهب جون بن جورج أوكشاما أن يروي قصّة الجسر الذي أقيم على نهر «أويان اللعين»... ويسرع في الكتابة، كما يقول: **«لأن الأوقات التي نعيشها أوقات مضطربة، والمستقبل أشد إظلاماً مما كان في أي يوم... وإن تكن الأيام أهدأ قليلاً، والناس أكثر وداعة، بعد أحداث الجسر الفظيعة، غير أن صورة مفجعة أخرى ترتسم في الأفق: الدولة التركية؛ فظلال مآذنها تمتد ببطء حتى هذه اللحظة».**

ويضيف: **«إنه لسلام مشؤوم، بل أكثر شؤماً من كل حرب، فمنذ قرون كنا نتاخم أرض الأغريق القديمة، وها نحن أولاء نجد أنفسنا فجأة من غير أن نشعر، وخلسةً كما في كابوس وقد حاذينا ذات صباح إمبراطورية العثمانيين. المآذن تنتصب في كل مكان، وكأنها غابة مظلمة. وإني لأستشعر أن أربيريا[٤] لن تلبث أن ترى مصيرها وقد تغير... ولا سيما بعد الذي حدث هذا الشتاء عندما أريق دمٌ للمرة الثانية على الجسر... دم آسيوي هذه المرة».**[٥]

يفيد ما سبق من اقتباس أن كاداريه يعود، في روايته: «الجسر»، إلى زمن مضطرب أسفر عن تحوّل تغيّر فيه مصير «أربيريا»، ويوكل القص إلى راهب يقيم في دير قديم، يراقب ما يحدث ويرى إليه، يحاور الناس، ينصح، يشرح، يحضر مقابلات الكونت حاكم الإقليم، ويترجم له، وينصحه... وفي الحالات جميعها يقدّم خطاباً للأتراك معادياً المسلمين، واختيار هذا الراوي ليقدم القصّ من منظوره يدل على أن المؤلف يريد أن يقول: إن هذا هو خطاب أبناء أربيريا قبل أن يتحوّل مصيرها.

يقرر هذا الخطاب أن البلاد كانت تنتظر مستقبلاً أشد إظلاماً مما كان في أي يومٍ كان. ويتمثل هذا المستقبل في صورة مفجعة ترتسم في الأفق، وهي صورة الدولة التركية، المتمثلة بمآذنها التي تمتد ظلالها ببطء.

في العودة إلى ذلك الزمن القديم، وإيكال القصّ إلى هذا الراوي، قَطْعٌ مع مرحلة تاريخية تحولت فيها ألبانيا إلى بلد مسلم، وإلغاء لهوية تشكلت طوال قرون، وليس من

دون دلالة اختيار اسم «أربيريا» بديلاً من اسم ألبانيا، ووصف هذه المرحلة التي يريد إلغاءها بـ«الأشد إظلاماً في التاريخ».

والراوي القادم من ذلك الزمن القديم، والذي يصف مرحلةً لم يعرفها بـ«الأشد إظلاماً في التاريخ» يؤدي خطاباً يحيي فيه هوية تاريخية لم تعد موجودة وإنما تحولت عبر التاريخ، ومن الواضح أن هذا الخطاب هو خطاب المؤلف الذي ينسب إلى ذلك الراوي، بدليل أن هذا يضف مرحلة لم يعرفها؛ إذ كيف له أن يعرف مرحلة لم تكن قد بدأت بعد!

يقيم الراوي ثنائية طرفها الأول أرض الإغريق القديمة وطرفها الثاني إمبراطوية العثمانيين، ويرى أن محاذاة هذا الطرف تمثل كابوساً، فكيف إن تقدّم وصار صاحب البلاد؟ ويرسم صورة تتكرر، وهي صورة المآذن التي كانت، في المرة الأولى تمتد ببطء، وفي المرة الثانية تنتصب كأنها غابة مظلمة... ويتمثل المستقبل «الأشد إظلاماً» بالتغير القادم، و«أربيريا»، كما يقول، لن تلبث أن ترى مصيرها الجديد المفتتح بالدم، وهو دم آسيوي هذه المرة...

يلفت في هذا الخطاب، علاوة على ما ذكر، ما يأتي:

١- الثنائيات مثل: الأغريق/ العثمانيون؛ دم آسيوي/ دم أوروبي.

٢- المعجم اللغوي الدال، ومن مفرداته: المستقبل الأشد إظلاماً...، صورة مفجعة، ظلال المآذن تمتد ببطء، سلام مشؤوم، أكثر شؤماً من كل حرب، كابوس، المآذن تنتصب كأنها غابة مظلمة، دم أريق...

٣- تكرار صورة المآذن ممتدة ومنتصبة...

وهذا يفيد أن «أربيريا» أقرب إلى الأغريق/ أوروبا منها إلى العثمانيين، وأن محاذاة هؤلاء كابوس، كما أنه يكشف نزعة عنصرية، ففيه تمييز بين دم أوروبي وآسيوي وأن امتداد هذا الآسيوي، التركي المسلم إليها، وسيطرته عليها بالدم مثل كابوس، جعلها تعيش المرحلة الأشد إظلاماً في التاريخ، لذا لا بد من التخلص من هذا الكابوس، الظلام الفاجعة... لتعود البلاد إلى موقعها الطبيعي وهويتها الأصيلة غير الطارئة...

ولكن كيف يتم التخلص؟ هذا سؤال أساس يطرح في هذه الأيام، كما كان يطرح من قبل، ولعله أشد إلحاحاً في هذا الزمن الذي تشتد فيه الهجمة على الإسلام.

جسر يبنى على أساس من دم:

يكتب الراهب قصة بناء الجسر في زمن/ فضاء تحدثنا عنه قبل قليل. وقصة بناء الجسر تتلخص في ما يأتي: كانت العبّارات تنقل الناس من ضفة نهر «الأويان اللعين» الأولى إلى ضفته الثانية. وكان أصحاب «عبّارات وأطواف» يستثمرون هذه العبّارات بناءً على اتفاق مع حاكم الإقليم يدفعون بموجبه مبلغاً مالياً له. ثم قدم أصحاب «جسور وطرقات»، واتفقوا مع الحاكم نفسه على بناء جسر يستثمرونه مقابل مبلغٍ من المال يدفعونه له.

ومنذ أن بوشر ببناء هذا الجسر دار صراع بين الطرفين، يبنى طرف فيهدم طرف آخر، ويستغل كل من الطرفين أسطورة محلية مفادها أن أضحية بشرية ينبغي أن تحبس في البناء ليبقى قائماً. هذا ما حدث في زمن قديم جداً. ثم حدث إبان بناء الجسر، فحُبس بين جدرانه عامل فقير عدَّه بناء الجسر تلك الأضحية. ورأى الراوي أن ذلك العامل كان يعمل لمصلحة «عبارات...» في هدم أسس الجسر، فضُبِط وحُبِس بين الجدران وغُطّي بالكلس... وهكذا أقيم الجسر.

تجددت الأسطورة القديمة، وشاعت...، ورأى إليها الراوي من منظور آخر، فقال: إن كل عمل عظيم يقتضي تضحية...، وإن قطرات الدم في الأسطورة القديمة لم تكن سوى سواقي العرق البشري، ولا سيما عرق الطبقات الفقيرة(٦)...، وقد استخدم الطرفان، في صراعهما الضاري أسطورتنا... أحدهما من جهة المياه، والآخر من جهة السهوب حاملين معهما الجريمة.(٧)

فالقادمون إذاً، كما يضيف الراوي «**قلّبوا في أيديهم، أيدي الخبراء في المحاسبة، أسطورتنا، فقد حوّروها بحسب ذوقهم، ولقد جردوها من حقيقتها السامية لوضعها في خدمة خدعة فظة، ولم يكن أحد قد فكر في ما يمكن أن يجلبه هؤلاء القادمون الجدد، بعضهم من الغرب، وبعضهم الآخر من الشرق**».(٨)

إن القادمين إلى هذه البلاد أتوا حاملين الجريمة، وحوّروا أسطورتها وجردوها من حقيقتها السامية ليضعوها في خدمة خدعة فظة... أما القادمون الجدد فماذا يحملون؟ لم

يكن أحد قد فكر في هذا الأمر، لكنهم، ومن دون شك، سيعبرون الجسر الذي أقيم على أساس من الدم...

السخرية/ الآخر الأدنى:

يخطب عبد الله ابن حاكم الإقليم التركي الواقع على الحدود، بموافقة السلطان، يد ابنة الكونت الألباني، فيرى الراوي أن الخطبة فريدة في نوعها؛ لأنها لم تكن صادرة عن الأمراء الألبانيين أو الأوروبيين، كما كان طبيعياً أن يكون أمرها، وإنما عن الدولة التركية. ثم يسخر من اسم الخطيب: «عبد الله (يا له من اسم!)» وإن تكن المصاهرات تمثل حلفاً أراده الأتراك فإن الكونت الألباني أبدى خشونة، وبعد حديث طويل عن المصاهرات ودورها يطيل الكلام على سخرية الفتيات والفتيان من هذا الخطيب التركي ومن الأتراك.

ينقل الراوي ما التقطته أذناه من حديث دار بين زائرتين، ومما يقوله: «... ومرَّت لحظة **أخذتا فيها تتهكمان على الشخص العثماني الذي كان قد تقدم لخطبة ابنة كونتنا. وكانتا تقهقهان، وهما تذكران «الصهر التركي»، كما كانتا تدعوانه، وتتخيلان سرواله المنتفخ، وتتماسكان بالأيدي كيلا تنزلقان إلى الخصر، ثم تجهدان وسط ضحكات جديدة في لفظ اسمه «عبد الله»، الشيء الذي كانتا تقومان به وهما تحرفانه أكثر فأكثر، ولا سيما حينما كانتا تجهدان في إيجاد صيغة تحببية له بإضافة «تاء ساكنة» بدل الهاء في آخره»**.(٩)

صفات أمة تبعث الرعب:

والحديث عن الأتراك الذين بدأوا يظهرون أخيراً يشمل أشياء كثيرة، يستفاد من وصفها والكلام عليها في الدلالة على صفات أمة، فأغانيهم بطيئة كأنها مثقلة بنعاس شديد، وملابسهم يبدو أنها صُممت بقصد إخفاء حالة أطرافهم، ولغتهم تنتهي كلماتها بما يشبه الهراوات...

هذا جميعه كان يبعث في نفس الراوي قلقاً غامضاً يتحول إلى نوع من الرعب، وذلك عندما يفكر أن هؤلاء الناس يخفون أموراً كثيرة. ويرى أنه لم يكن بلا سبب ألاّ يرتسم في عمائمهم ولا في سراويلهم المنتفخة وأرديتهم أي خط ظاهر الوضوح، مستقيماً كان أم منكسراً أو حتى منحنياً، فكل شيء باهت ومصنوع بطريقة يقدر معها على أن يبدل شكله

باستمرار. ومن الصعب أن يميز المرء تحت مثل هذه الملابس ما إذا كانت إحدى الأذرع تحمل في طرفها خنجراً أو زهرة... وكانت سراويلهم الفضفاضة تخلّف وراءها حفيفاً حريرياً خداعاً...، ثم يتساءل: «**ولكن ماذا يُرتجى، بعد كل حساب، من أمةٍ تخفي منبعها بالذات: النساء**؟[١٠]. وفي موضع آخر يقول: «**... ولوّحوا لها بالبرقع الشرقي الأسود الذي يغطون به وجوه نسائهم**»[١١]

وفي موضع آخر يصف فئة أخرى من الأتراك، فيسلّط الضوء على الدراويش فيلتقط لقطات منها: «**... وهم حفاة وأقدامهم يغطيها الوحل**»، «**إن أولئك الأشخاص المنفرين لم يكونوا سوى جواسيس لـ«الدولة» الآسيوية الكبرى التي قدمها القدر جارة لنا**»[١٢].

يتذكر ويتذكر...، ويقول: «**... فيحدث لي أحياناً أن أردِّد لنفسي مثل معتوه: عبد الله**»[١٣].

يوكل كاداريه إلى راوٍ انتقاه بعناية أن يتحدث عن عناصر حضارية: الغناء، اللغة، اللباس، العلاقة بين الرجل والمرأة، التصرفات، المتديّنون الزهاد... ليستدل منها، ووفاقاً لمنظوره، على صفات تبعث قلقاً غامضاً يتحول إلى نوع من الرعب، وتحيل المتأمل المتذكر معتوهاً يردد: عبد الله، وهذا الاسم يرمز إلى الإسلام، وهذا خطاب معاصر يستخدم قناعاً تاريخياً ليقوّله ما يراه هو في هذه الأيام.

ثم يفصّل في الكلام على القلق/ الرعب، ويجسد ذلك في مشهد حسّي، فيتحدث عن الفصائل التركية التي كان يستدعيها المتنازعون الألبان، لتنصر هذا أو ذاك منهم، ومما يقوله: «**إن عيونهم كانت تنظر حولها بجشع ظننت معه مذّاك أني أرى فيها مهود أطفالنا وبيوتنا وجنتنا وجبالنا وقد جرفتها الأمواج بعد إحدى الكوارث. وقلت في نفسي: إنهم يتظاهرون بالرحيل، غير أن شيئاً لن يقتلعهم أبداً من هنا، وراودتني رغبة في الصياح: من الذي استدعاهم؟... وإني لأخشى أن تطرح هذا السؤال يوماً جميع شعوب أوروبا، ولن يكون سؤالاً، بل سيكون صرخةً مكروبة...**»، ثم يقرر أن الإجابة عن هذا السؤال/ الحقيقة تلفحت، كما يبدو، بالحرير التركي.

وتتكرر صورة التركي في حديث الراهب/ الراوي وراهب آخر يدعى «بروكهارت» كان عائداً إلى أوروبا من بيزنطية؛ حيث أُرسِل في مهمة. يروي «بروكهارت» في بضع عبارات

مقتضبة المذبحة الكبرى التي حلت بالجيش البلغاري المهزوم بناءً على أوامر الإمبراطور البيزنطي: «فلقد سُمِلت أعين خمسة عشر ألف جندي بلغاري كانوا قد وقعوا في الأسر...».

لكن الراهب القلق، المرعوب، المردد «عبد الله» كالمعتوه لا يتوقف إزاء واقع يتنازع فيه حكام الأقاليم، ويستنجد كل منهم بفصائل تركية، ولا يتوقف إزاء المذبحة الهمجية الكبرى، ويرويها بعبارات مقتضبة...، وإنما يدفع محدّثه لأن يوافقه على أن الخطر الرئيسي «في عهدنا»، مصدره الدولة التركية. فبلادنا، كما يقول، تقع «عند عتبة أوروبا» ثم يفصّل في الكلام على بلاده وأصلها وسمائها، ويرى أن لغتيه: الألبانية واليونانية مهددتان من اللغة التركية تهديد غيمة سوداء، فيوافق محدثه بهزة من رأسه، ويقول: «ليست الحرب بين اللغات أقل مأساوية من الحرب بين الناس»، فيضيف هو: «إن اللغة التركية بلاحقتها الشهيرة «لك»[١٤] لتشبه وطأتها علينا وطأة هراوة رهيبة». ثم لا يلبث أن يقرر: «وليس من أحد يعي مبلغ الخطر، فأمراؤنا مستمرون في خصوماتهم ومشاحناتهم»، فيستفظع محدثه: «حتى الآن، والأتراك على أبوابكم!؟»، فيهز رأسه بالإيجاب، ويقول: «والأدهى أنهم لا يزالون يستخدمون مرتزقة من الأتراك»[١٥].

في قفص واحد مع نمر/ الوحش التركي:

وفي الوقت الذي يتابع فيه الراوي عملية بناء الجسر يتابع أخبار الخطر القادم، فيروي أن الأتراك توصلوا إلى أن ينتزعوا من بيزنطة (الإمبراطورية الشائخة) نصيبهم من قاعدة «فلوريبه». وبعد أن يصف هذه الأنباء بالمشؤومة يقول: «وكان من السهل تصور كيفية العيش في قفص واحد مع نمر»، ويفسر ما حدث، من منظور بعضهم، بأنه الطريقة الوحيدة للإفلات في الوقت الحاضر من الوحش التركي...، ويتساءل: «في الوقت الحاضر...، ولكن في ما بعد؟»[١٦].

الفضاء الإسلامي/ عالم شرير يعلوه هلال:

وإذ تتاح للراوي فرصة النظر إلى عتبة الإمبراطورية التركية يردد، في نفسه كالأحمق، كما يقول: «إليك، ها هوذا يبدأ على بعد خطوات ما يسمى الفضاء الإسلامي وكانت آسيا تبدأ على بعد خطوتين مني، وكان في ذلك ما يدعو حقاً إلى الجنون، فهي التي كانت قبلاً أبعد من

بلاد الحكايات تقوم الآن، هنا، تحت أنفنا. ولم يكن في وسعي مع ذلك أن أصدق، ولا كان في وسع أحد أيضاً أن يصدق أنهم كانوا قد اقتربوا إلى هذا الحد...».(١٧)

ثم تتوالى الأخبار، كما يقول الراوي، متلاحقة «مشؤومة» كالغيوم في الفصل الرديء، فيشن الأتراك هجوماً دبلوماسياً كبيراً، ويحرزون انتصارات كبرى...، ويتوقف الراوي إزاء تفصيل بدا في الظاهر «بلا مغزى ولا أهمية»، ويتعلق بتغيير تاريخ الرسائل، فهذه لم تكن مؤرخة بالعام ١٣٧٩م وإنما بالعام ٧٥٧هـ، ويعلق: «**المناكيد، لقد عادوا القهقرى ستة قرون، وكانوا يضحكون ويمزحون. فيا للهول!**».(١٨)

ثم يفصح الراوي، ويقول بلغة مباشرة: «**... وهناك عالم شرير يعلوه هلال يهدد الدولة الألبانية**».(١٩)

يواصل الراوي تتبع الأخبار، فيروي أن الأتراك أنجزوا العمل الذي سينزل اللعنة بأوروبا... ثم يظهر سبعة فرسان أتراك قرب الجسر، ويتقدمون...، فيدور قتال عند منتصفه، ويرتفع عويل فظيع خارج من حنجرة غير بشرية ينتهي بانسحاب الفرسان حاملين جثماناً.

ويبقى دمٌ على الجسر...، فيعلق الراوي: «**... فلقد رأينا ملابسهم الآسيوية، وسمعنا موسيقاهم، وها نحن ننظر إلى دمهم... لم يكن بدّ من أن يأتي هذا اليوم**».(٢٠) ثم يسأل، وهو على وشك الانتحاب: «**كيف ستتبدلين إلى آسيا، أنت البالغة الجمال يا أربيريا!؟**» ثم يغم بصره، فيشعر بأنه يرى سهولاً برمتها مبللة بالدم وجبالاً متحولة إلى رماد، والجحافل التركية تسْجَح العالم لكي تمد الفضاء الإسلامي... ويتوقف، لدى الـ «**لك**»، فيصفه بالفظيع، ويقول إنه يذكره بـ«**ذيل زاحفة من الزواحف**».(٢١)

يطغى خطاب الراوي على هذه الرواية، ويهيمن هذا الراوي على مسار الرواية، وهو قناع ينطق كاداريه من روائه،... والخطاب، في هذه الرواية، يقسم البشر إلى قسمين مختلفين تمام الاختلاف:

١- أوروبي

٢- آسيوي شرقي تركي مسلم

ويصف القسم الثاني بأنه عالم متخلف يعيد البشرية ستة قرون إلى الوراء، شرير،

يحول الهلال – العسل إلى هلال دم مؤذٍ، مؤذ جداً، وحشي، بدائي تتذكر أداة لغوية من أدوات لغته بذيل زاحفة... وهذا العالم قادم، كأنه كائن بدائي وقوي يبلّل السهول بالدم ويحوّل الجبال إلى رماد...

رواية طبول المطر:

وتأتي رواية «طبول المطر» لتكمل الحكاية...

تنتهي رواية «الجسر» بقدوم كوكبة من الفرسان الأتراك دارت بينها وبين حرّاس الجسر معركة انتهت بعودتها من حيث أتت، بعد أن فقدت أحد فرسانها، وسال دم على الجسر. رآه الراوي دماً آسيوياً مختلفاً.

وتبدأ رواية «طبول المطر» بوصول الفيالق التركية الأولى إلى تحت أسوار القلعة وإقامة معسكر الجيش. يلفت في وصف الراوي لما يحدث قوله، من نحو أول: إن المعسكر المتسع الهائل كان يبدو لقائده الأعلى طرسون باشا، بأرتال الخيام الممتدة الطويلة، «أخطبوطاً عملاقاً يمد أرجله مجاس يحاصر القلعة ببطء، لكن يحاصرها كلها»[٢٢]، وقوله من نحو ثانٍ: إن طرسون باشا أطلق، ومن غير تعمد نهدة عميقة عندما وقف لأول مرة قبالة أسوار قلعة محاصرة، وأحس بقلق أمام المجهول الذي سيواجهه. هذه المرة ترتفع أمامه قلعة محزنة جنائزية، وشيء ما غريب وشاذ، لا بل مشؤوم يسكن هيكل أبراجها وترتيبها.

تروي «طبول المطر» قصة صراع دموي مرير دار بين الجيش/ الأخطبوط المحاصر والقلعة الجنائزية المحاصرة، وينتهي هذا الصراع بهزيمة الأخطبوط على الرغم من المحاولات الكثيرة لاقتحامها واستخدام مختلف الأساليب العسكرية وغير العسكرية: قصف، تدمير، تسلق أسوار، إحراق، قطع الماء، نشر الأوبئة بوساطة الحيوانات، فيغادر الجيش بعد سقوط المطر في الخريف، وينتحر القائد الأعلى خوفاً من عقاب «البادیشاه المستبد».

وهنا نفهم إشارات الراوي التي جاءت في بداية الرواية، والتي ذكرناها قبل قليل، فقد أصاب الشؤم القائد الأعلى وجيشه، بعد أن دقّ المطر طبوله وهطل. يقول الراوي: «... والشيء الوحيد الذي يخشاه هو: طبول المطر، فدويها الذي توقف منذ أشهر قد يستأنف بغتة، وستكون وقتها خاتمة الأشياء».[٢٣]

تدخّلت الطبيعة، ودقت طبولها لنصرة القلعة الجنائزية، وأصاب الشؤم الجيش الأخطبوط المحاصر، ولم يعد أمامه، بعد أن عرف هزائم متتالية، إلا العودة إلى بلاده، لكن المطر سيكف عن دق طبوله، وسيأتي الربيع، ويعود هذا الجيش مرة أولى، ومرة ثانية، وثالثة... ويواصل ذلك إلى أن يقضي على المقاومة، ويستولي على القلعة، ومن ثم على البلاد. يقول الراوي/ الشخصية المشاركة في المقاومة:

«جرَّبوا كل شيء ضدنا، من المدافع الضخمة إلى الفئران المحقونة بالجراثيم والأمراض، لكن صمدنا ولا نزال... نعلم أن هذا الصمود يكلفنا غالياً، وسوف يكلفنا في المستقبل أغلى. لكن لا بد من أحد كي يقف في درب الأقوام المتوحشة المعتوهة، وقد اختارنا التاريخ لذلك، ووضعنا الزمن على مفترق الطرق...». (٢٤)

يقول الراوي في المقابل، على لسان ضابط تركي:

«سنظهر، في هذه الأصقاع، كل ربيع ومع عودة الاخضرار، وتهتز الأرض تحت أقدام جنودنا، وفيالقنا ستُحرق الوديان، كل ما ينبت فيها أو يُنصب سيصير رماداً». (٢٥)

وهكذا يعود إسماعيل كاداريه بالزمن إلى ما قبل تحوّل مصير ألبانيا... وإلى حكايات مقاومة الآخر التركي المسلم. وهو، في هذا يعيد ما قاله في رواية الجسر عن هوية ألبانيا الحقيقية، ويصور مقاومة أبنائها لـ **«الأقوام المتوحشة المعتوهة»**؛ لأن التاريخ اختارهم لذلك.

لا يستخدم هذه المرة قناعاً كما فعل في رواية «الجسر»، وإنما أوكل القصّ إلى راويين أولهما راوٍ عليم، كلي المعرفة، يروي ما يحدث في الجيش التركي وله. وهذا الراوي لا يحتاج إلى تسويغ معرفته، فهو يعرف كل شيء، من دون أن يستند إلى أي وثيقة تثبت ما يذهب إليه. لذا، ولأن الرواية الثانية تاريخية تروي ما حدث في مرحلة مصيرية، تحولت فيها مصائر دول ومناطق، فإن هذا الراوي يمثل المؤلف، فهو ليس مؤرخاً يستند إلى مصادر ومراجع، وإنما كاتب يرى التاريخ من منظوره. وثانيهما راوٍ مشارك، لعله قائد حرس القلعة، يروي في نهاية كل فصل ما حدث من منظوره هو.

ويبدو للقارئ بوضوح أن ليس من فروقات بين الراويين – الصوتين، ما يعني أن الرواية هي رواية صوت واحد ينطق برؤية «الأنا» الألباني القديم كما يتصورها معادية

للآخر التركي المسلم، كما تبيّناها من قبل، وكما سوف نستكمل تبيّنها في ما بعد. والراوي مهيمن، فإن أنطق شخصية تركية بخطاب ما، فهذا الخطاب هو خطابه هو، إنه ينطق الشخصية بما يخدم رؤيته إلى التركي المسلم.

الصورة التي يقدمها خطاب كاداريه هي الصورة النمطية التي يتداولها كثيرون في الغرب، ما يضيفه الروائي الألباني المنشق هو المبالغات المتمثلة في خطاب مباشر يقرب من الشتيمة، علاوةً على تجسيد هذه الصورة في نصٍّ روائي مشغول. ويمكن أن نركز عناصرها في ما يأتي:

– السلطان/ الباديشاه سيد الكون الذي يخضع له الإنس والجن خضوعاً مطلقاً...(٢٦) مستبد مخيف يدير مجموعة حاكمة فاسدة، يدور صراع وصولي وحشي في داخلها. يقول الراوي عن القائد العام للجيش: «... **وفي كل يوم تزداد الإمبراطورية اتساعاً، وهي لمن يُظهر فعالية أكبر وبسالة أعظم. مئات من الشباب الوصوليين يبتغون السلطة، ويرتمون كالوحوش الضارية على المجد والثروة**»(٢٧)، ومن يصل منهم يحيا في رفاهية يدل عليها قول الراوي عن القائد الأعلى: «... **كان يحدث نفسه قائلاً: إنه سيضطر إلى نسيان أشياء كثيرة أثناء الحصار، ولاسيما حمّاماته الفاخرة المغطاة بالمرمر والموزاييك في مدينته البعيدة...**»(٢٨). وإن أخفق هذا القائد في الاستيلاء على قلعة، فإنه يبادر إلى الانتحار كما فعل طرسون باشا؛ إذ إنه يعي أنه إذا بدأ نزول المنحدر فلن يصعد من جديد إطلاقاً...

– رؤية هذه السلطة إلى العالم، من نحو أول، شكلية تتمثل في لغة إنشائية متعلقة بالزخارف اللفظية وتنطق بمبالغات فارغة، كما لو أنها تتحدث عن عالم آخر، ومن النماذج الدالة على ذلك ما يكتبه مؤرخ الحملة، ومنه: كتب المؤرخ في وصف القلعة المحاصرة والجبال صفات انطباعية، فلم تعجب القائد العام للحملة، فعاد المؤرخ في اليوم التالي، وقد احمرت عيناه من ليلة لم ينم خلالها، وقرأ: «**إنها جبال عالية لا تستطيع حتى الغربان أن تحلق فوقها، وحده الشيطان يتسلقها بعد لأي، والجنيّ يبلي فيها صندله الجلدي، وعلى الدجاجة أيضاً أن تصفح قدميها بالحديد كي تمشي فيها وتصعدها**».(٢٩)

وتبدو هذه الرؤية، من نحو ثانٍ، خرافية تعتمد على الفلك والأحلام، فعندما عقد مجلس الاستشارة للبحث في موعد الهجوم على القلعة، نسب الراوي إلى مفتي الحملة قوله: «غداً ستكون وضعية الهجوم بالنسبة إلى القمر مناسبة جداً في حين أنها ستكون يوم الثلاثاء

معاكسة تماماً، أضف إلى ذلك أن الله تعالى ألهمني مساء البارحة حلماً أقصّه عليكم: رأيت في ضوء القمر الساطع تمساحاً يهاجم جاموساً أسود وينتزع قلبه من صدره، فالجاموس الأسود يمثل القلعة بالتأكيد»[٣٠]. ولما كانت الاستعدادات العسكرية لم تكتمل بعد، فقد مني الهجوم بالإخفاق الذريع.

كما أنها تبدو، من نحو ثالث، قدرية، فالدراويش ينتشرون في المعسكر، وينشدون: «يا قدر، يا مكتوب»[٣١]. وينطون ويقفزون على إيقاع الطبل بلا توقف، ويصف الراوي رقص الدراويش فيقول: **«كان رقصهم رتيباً ومريعاً: يجلسون على أعقابهم، ثم ينهضون بحركة عمودية اهتزازية، سريعة وطاغية مطلقين صرخات جنائزية حزينة، وجوههم ممتقعه، وعيونهم نصف مطبقة: حالة الشطح...»**.

يرى الإنكشاري أن هذا الرقص يلهب... وتتجسد هذه الرؤية من نحو رابع في مشهد يدل على وحشية؛ إذ يلتقي عدد من «المجمعين» في ناحية من المعسكر ويناقشون مشكلاتهم، ذلك أنهم احترفوا تجميع الأسنان، الأصابع، الجدائل، الآذان، الأظافر، والحواجب. من عاداتهم، كما يقول الراوي، **«أن ينقضّوا، بعد انتهاء المعركة تماماً، على جثث الأعداء ليملأوا حقائبهم بالقطع المطلوبة في المدن الكبرى، كانت الآذان هي الأكثر رواجاً آنذاك»**.[٣٢]

وتبلغ هذه الوحشية أوجها عندما يفكر قادة المعسكر في إبادة الشعب الذي يقاتلونه وعندما يخططون لذلك، فهذه الرؤية، من نحو خامس، تعمل على توجيه **«صفعة إلى مستقبل هذا الشعب وليس إلى حاضره فحسب»**[٣٣]. ومما يدور في أذهان مخططي صفعات المستقبل نقرأ ما يقوله الراوي على لسان ضابط الإدارة: **«... إننا بالحملات التأديبية والمجازر والحروب المتواصلة، وبسلبهم الأطفال كي نجعل منهم إنكشاريين، سنحد من قدرتهم على النمو والازدياد. لكن ذلك لا يكفي؛ لأن الشعوب كالأعشاب تنمو وتنبت في كل مكان؛ لذا ينبغي البحث عن وسائل أخرى أكثر مكراً وشدة...»**[٣٤]. ويبدو أن هذا الضابط يجد سبباً إضافياً لإبادة الألبان، فيقول: **«إذ كنا نتوجه إلى أوروبا عندما انتصبوا أمامنا على حين غرة، والحواجز المفاجئة هي الأصعب اجتيازاً»**[٣٥]. وهنا يعطي الراوي للمقاومة الألبانية بعداً قارياً، أو عالمياً، فالألبان إنما يدافعون عن أوروبا بوصفهم

عتبتها، إنهم يدافعون عن حضارة في وجه حضارة أخرى، يفصل في تشويهها، ففي وجه خامس يركز الراوي على النهب والسلب، فيقول عن أحد القادة: «فهو حانق إذ لم يسمح الباشا لجنوده الأكنجيين بالانتشار في الضواحي من أجل النهب والسلب».(٣٦)

وللباشا كما يضيف الراوي أسبابه، فهو يريد ألا يشغل الجنود بالسلب عن القتال. «وعندما يندفع «الاكنجيون» للسلب، يخربون المنطقة كعادتهم، يرتكبون المجازر، يدمرون، يسعون إلى سبي نسائنا، إنهم يقوضون ثقافتنا».(٣٧)

وفي ما يتعلق بتقويض الثقافة، وتأييداً لرؤية الراوي القائلة بأن الألبان إنما كانوا يدافعون عن حضارة في وجه حضارة أخرى، ما يعطي للصراع بعداً حضارياً عالمياً ينسب الراوي لأحد شيوخ الحملة قوله: «سنلقن القرآن لهؤلاء المتمردين الذين لعنوا... سنقيم فوق أرضهم المحدبة كظهر جني مآذن يحفظها الله ويباركها. من على هذه الأبراج، وفي الفجر، ستهبط أصوات مؤذنينا فوق رؤوسهم الجاهلة حشيشاً يخطف الروح... سنجبر هؤلاء الكفرة على السجود خمس مرات في اليوم باتجاه مكة. سنلف رؤوسهم المريضة بعمرة الإسلام الشافية المباركة».(٣٨)

لم يدرك الراوي أن الشيخ لا يصف أصوات المؤذنين بالحشيش فالصوت هنا هو صوت إسماعيل كاداريه، الذي كما يبدو لا يعرف عن الإسلام إلا الشكل/ المظهر، فمن المعروف، في الإسلام أن لا إكراه في الدين، كما أن أصول الدين الإسلامي لا تتمثل في المآذن ولا في العمائم... وهذا يعني أن الراوي/ كاداريه في الحقيقة ينطق الشيخ بما يراه هو، وما يراه هو في الإسلام لا يعدو كونه رؤية شكلية سطحية.

ويلخص الراوي رؤيته، فيقول: «... لقد شاهدنا آسيا بكامل تصوفها ووحشيتها تحتنا، تأملنا هذا الخصم الكئيب قائلين: هذا هو عالمهم ومفهومهم للوجود الذي أرادوا فرضه علينا، كما أرادوا تقييدنا بسلاسل العبودية. ألزمنا فتياتنا بالابتعاد عن الشرفات كي لا يرين هذا المشهد المريع...».(٣٩)

يفصِّل الراوي في الكلام على النساء وعلى علاقة الرجل بالمرأة – في هذا العالم – المشهد الذي يصفه بالمريع، فمن نحو أول يركز على الحريم وعدد النساء فيه، ومن نماذج ذلك قوله عن القائد الأعلى: «قرَّر أن يصطحب معه أربع نساء من حريمه البالغ ثماني عشرة إمرأة...» ومن نحو ثان ركز أيضاً على السبايا، فيكمل حديثه عن القائد، فيقول إن

كبير الوزراء شاهد عربة النساء فسأل القائد عن سبب اصطحابه لبعض النساء إلى بلد عرف بجمال نسائه، فأجابه متهرباً من نظرته الماكرة، بعدم رغبته في أن يشارك جنوده الباسلين في السبايا اللواتي كانوا يأسرون[٤٠]. ويتكرر الحديث عن السبايا، ويتميز فيه ذلك العنصر الوحشي الذي لا يكف الراوي عن تضمينه أي حديث عن الأتراك الآسيويين، فينسب إلى شاعر الحملة المتمايل من السكر قوله: «**ليلة استيلائنا على القلعة ستحدث أشياء كثيرة! أية غوغاء! أية عربدة! فبعد أن يروي الرجال شهواتهم، سيتبادلون السبايا، سيحتفظون بهن ساعة، ثم يعاودون بيعهن من جديد ليبتاعوا أخريات. ستنتقل السبايا من خيمة إلى خيمة. ستكثر المشاجرات وربما سيكون قتلى! أوه! هذا مؤكد**»[٤١]. والاهتمام بالسبايا لا يقتصر على جنود المعسكر، ذلك أن مصلحة الخدمات التي تقوم بإعداد الحملات الكبيرة وتجهيزها، لم تكن تنسى أن تضع أثناء إعداد المدافع والتموين والأغطية والجمال، بين معدات الجيش بضعة آلاف من الفساتين المورّدة التي تستخدم لسبايا المستقبل[٤٢].

لكن الراوي ينسب إلى أحد شيوخ الحملة قوله: «**سنخلع عن نسائهم وبناتهم ثيابهن البيضاء الفاحشة لنلبسهن العباءة السوداء الفاضلة التي باركها الدين الحنيف، سنغطي بالحجاب عيونهن الماكرة التي تنظر إلى الرجال بفجور، ووجوههن التي تنكشف أمام أنظارهم بحرية لا تطاق. سننسيهن فورات الحب المحرقة كي يتزوجن على سنة الله ورسوله. سنجعلهن يطأطئن رؤوسهن العتية للسلطة الزوجية كما جاء في القرآن الكريم، هكذا، وبصرفهن عن أعرافهن الجاهلية وإلباسهن عوائدنا ومفاهيمنا النبيلة الرائعة، سنجعل منهن نساء فاضلات شريفات، ونخلص أرواحهن من الجن، إننا سنسفك دماءنا كي ينتشر نور الإسلام فيبلغ حتى أوكار الذئاب**»[٤٣].

إن هذا الخطاب المنسوب إلى أحد شيوخ الحملة، يمثل رؤية الراوي إلى الإسلام، فالشيخ لن يستخدم مفردات مثل «حرية لا تطاق» و«فورات الحب المحرقة» في مقابل الزواج فالإسلام لا يحرم الحب، والقرآن الكريم لا يفرض طأطأة رأس المرأة للسلطة الزوجية، وأي جن يُراد التخلص منه؟!، كما أن الإسلام يؤكد أن لا إكراه في الدين... هذه صورة نمطية متداولة لدى كثيرين من غير المسلمين في الغرب، والراوي يرددها كما يسمعها، أو لعله يرددها لتشيع...

وإن قارنّا هذا الخطاب بالخطاب الآخر عن السبايا نجدهما متناقضين فأيهما نصدق، هل السعي إلى النهب والسبي أو السعي إلى نشر الفضيلة ونور الإسلام؟

الخاتمة:

وفي الختام يمكن القول: إن الخطاب الذي تنطق به هاتان الروايتان يمكن أن يلخّصه قول الراوي في «طبول المطر»: «... **سيدرك الذين سوف يعيشون على هذه الأرض من بعدنا، أنه لم يكن سهلاً علينا الصمود في هذا الصراع الهائل ضد الغول الأكثر ضراوة آنذاك...**»(٤٤). فالآخر التركي الآسيوي الشرقي المسلم الأكثر ضراوة، «آنذاك».. ولكن هل تعني «آنذاك» أنَّ من ينطق بهذه العبارة ينطق بها الآن، على لسان راوٍ من ذلك العصر؟ ما يعني أن الخطاب خطاب معاصر يتوسّل حقبة تاريخية معينة بوصفها القناع المناسب لقوله.

الهوامش

(١) جستن مكارثي، الطرد والإبادة – مصير المسلمين العثمانيين، دمشق: دار قدمس، ط ١، ٢٠٠٥.

(٢) إسماعيل كاداريه، الجسر، ترجمة عفيف دمشقية، بيروت: دار الآداب، ط ١، ١٩٩٤.

(٣) إسماعيل كاداريه، طبول المطر، ترجمة محمد عضيمة، بيروت: دار الآداب، ط ١، ١٩٩٠.

(٤) تسمية كانت تطلق على ألبانيا قديماً.

(٥) رواية الجسر، هوية التاريخ، ص٦.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٣.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٨) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٩) المصدر نفسه، ص٥٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص٤٠-٤١.

(١١) المصدر نفسه، ص١١٤.

(١٢) المصدر نفسه، ص٤٩-٥٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص٤٩-٥٤.

(١٤) «لك» أداة النسبة في اللغة التركية، «سفر برلك» سفر بري.

(١٥) رواية الجسر، هوية وتاريخ، ص٦٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص٩٢.

(١٧) المصدر نفسه، ص١٢٥.

(١٨) المصدر نفسه، ص١٣٦.

(١٩) المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص١٤٨ و١٤٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٢٢) رواية طبول المطر، ص٥.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٢٦٤.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٤٧.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٢٤٤.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١١.

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٣٧.

(٣١) المصدر نفسه، ص٣٤ و٣٥.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٤٩ .

(٣٣) المصدر نفسه، ص١٢٤.

(٣٤) المصدر نفسه، ص١٢٦.

(٣٥) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٣٨ .

(٣٧) المصدر نفسه، ص٩٨

(٣٨) المصدر نفسه، ص٤٨-٤٩ .

(٣٩) المصدر نفسه، ص٥٥ .

(٤٠) المصدر نفسه، ص٩.

(٤١) المصدر نفسه، ص٤٧ و٤٨ .

(٤٢) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٤٣) المصدر نفسه، ص٥٤ .

(٤٤) المصدر نفسه، ص٢٦٨ .